في قوله - تعالى -: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا﴾ [البقرة: 200 - 202] فيه تصويرٌ لحالة الناس وأهدافهم من الحياة، وتصوير آخر لواقع حقيقة الدين "دين الإسلام"، فالتصوير الأول لحالة الناس على نوعين:

أحدهما: صنف مادي قد جعل المادةَ هدفه الوحيد، والدنيا غايةَ أمله ومبلغ عمله، وهي حالةُ أكثرِ الناس، التي جاءت رُسُل الله، ونزل وحيه؛ لتقويم عقيدتهم، وتحويلهم عن أهوائهم السيئة، وقد يكون من هذا الصِّنف من هو مُسلم قاصر نظره على المادة، فهو مذموم ومحروم من الخير العظيم، كما رُوِيَ أنَّ البادية من الحجاج يسألون الله أن يكونَ عامهم عام غيث، وخصب، وحسن ولادة، ونحو ذلك، ولكنَّ أصل المقصود من ذكر الله للنوعين هو ما كان عليه مشركو العرب من قَصْرِ قصدهم على الحياة الدُّنيا ومادتها المختلفة.

وهذا كقوله - سبحانه - في الآيتين (7، 8) من سورة يونس: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: 7 - 8]، وفي الآيتين (15 و16) من سورة هود: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: 15 - 16].

فهذا الصِّنف من الناس مع حرمانه لنفسه خيرَ الآخرة، فإن عيشته في الدنيا عيشة نكد، وقلق، وإزعاج، وتعب، ونهمة، وهموم، تَجلب عليه السَّهر أو المرض، وحسدٍ يلهب قلبه إن لم ينشغل عنه بأعمالٍ تُلهيه وتُقلقه.

هذه حالة الأفراد وأَمَّا حالة علْيَة القوم فأدهى وأفظع، كما هي الحال المشاهدة، خصوصًا حالةَ أصحاب الدعاوى العريضة من التقدمية ونحوها، فإنَّ أهدافَهم المادية الصرفة تَجعل بعضَهم يأكل بعضًا، ويُفني بَعضًا، وتشقى بهم شعوبُهم شقاءً لَم يعرف له التاريخُ مَثيلاً؛ لكون الدنيا غايةَ أملهم، ومبلغَ علمهم.

أمَّا الصنف الثاني المتبع لدين الله: والذي لا يتعدَّى حكمه الشرعي ولا سنته الفطرية، فإنَّه يجمع في مطالبه ومقاصده وغاياته بين الدُّنيا والآخرة، كما صوَّر الله لنا حالته في دعائه: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: 201]، وفرق عظيم بين الصنفين؛ إذ الصنفُ الأول يشقى في الدُّنيا شقاءً معنويًا، ولو سعد بها حسيًا، ثم لا يكون له في الآخرة من خلاق؛ أي: من نصيب، وما أعظم شقاوة العالم أجمع بهذا الصنف من الناس!

وقد ورد عنه - صلَّى الله عليه وسلَّم - أنَّه قال: ((مَن كانت الدُّنيا همَّه، فرَّقَ الله عليه أمره، وجعل فقرَه بين عينيه، ولَم يأته من الدنيا إلاَّ ما كتب له، ومَن كانت الآخرة نيته، جمع الله له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدُّنيا وهي راغمة))[1]، هذه حقيقةٌ ملموسة.

أَمَّا الصنف الآخر معتدل الأهداف، الذي لا ينقطع عن الدُّنيا، ولا يبتدع رهبانية، أو أي نوع من أنواع التصوُّف يقطعه عن الدُّنيا، أو يشغله عن العمل لها، بل يطلب الجميع، يطلب الدُّنيا دون إخلالٍ بالدِّين ولا على حساب الدين، ويطلب الدينَ حسب ما رسمه الله له من الإخلاص لوجهه الكريم والمتابعة لرسوله - عليه الصلاة والسلام - كما أوضحته في تفسير: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: 5] من جَعْلِ الدنيا وسيلةً لا غاية، وألا يطغى العملُ من أجلها على العمل من أجل الدين، بل تسير الدنيا لخدمة الدين.

والناسُ في الحقيقة على ثلاثة أصناف بخصوص تعلُّقهم في الدُّنيا، منهم من يقصر همَّه على الدنيا، فلا يلتفت إلى غيرها حتى في سؤاله لله، كما قال عنه - سبحانه وتعالى -: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ [البقرة: 200]؛ يعني من نصيب.

والنوع الثاني: مَن يطلب الدُّنيا والآخرة - كما أوضحنا - وهذا هو الذي طريقته مُلائمة لفطرة الله وسننه الكونيَّة، وهم المقصودون في قوله - تعالى -: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: 201]، ثُمَّ بين حسنَ عاقبتهم بقوله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا﴾ [البقرة: 202].

والصنف الثالث: يطلب الآخرة، ويرفض الدنيا بالكلية، وهذا فعله غير مشروع وطريقته مذمومة، وقوله: ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [البقرة: 202]؛ يعني سريع المجازاة للناس على أعمالهم من خير أو شر، فإنَّه لا يغفل ولا يهمل ولا يظلم مثقال ذرَّة.

[1] رواه أحمد، 5/183، وابن ماجه، (4105)، وصححه ابن حبان، (680).